

الراحل الشيخ علي الشرقي شاعر المعاناة والحب والنهوض

جمع فر المهاجر

القسم الثالث والأخير

وحين يتصدى الشاعر علي الشرقي للفرات الطاغي الذي أطلق مياهه المدمرة على أكواخ الفلاحين الفقراء يعاتبه عتاباً مرّاً ممزوجاً بمرارة الألم والمعاناة عن عصفه بتلك الأكواخ المهترئة التي لا تقي من حر ولا قر. وقد كتب قصيدته "الفرات الطاغي" أثناء حدوث ذلك الفيضان الرهيب لنهر الفرات عام 1929م حيث يسكب قطرات دمه مرة أخرى على الورق ليعبر عما تعانيه روحه من حزن وتمزق جراء ما حل بتلك الطبقات الكادحة المسحوقة من كوارث رهيبه بعد أن عصفت الأمواج العاتية وزمجت واكتسحت كل شيء دون رحمة. ومن خلال القصيده لا يفوته أن يوجه نقده اللاذع للسلطات الحاكمة آنذاك التي لم تتحسس هول الكارثة والمعاناة الكبرى والرزايا التي عصفت بالفقراء المنكوبين وبأكواخهم الطينية التي لا يملكون غير تلك الملاجئ المتهالكة يحشرون أجسادهم الذابله النحيلة المتعبة فيها حين ينشر الليل كلله الثقيل عليها لينعموا بقليل من النوم في طياتها التي تغص بالحشرات. فباتوا بعد تلك المأساة حيارى في العراق يلتحفون الأرض والسماء تحت بصر وسمع الحكام القابعيين في قصورهم الفارهة وهم يغطون في نومهم اللذيذ الهادئ، ولم تتحرك ضمائرهم ليقوموا بأدنى فعل لدرء الخطر عن هؤلاء البؤساء المنهكين، حتى إن ماشيتهم قد أصابها الذعر والفرع من هول هذه المياه الغاضبة. ويتساءل أين نواب الشعب وفصاحتهم وخطبهم الرنانة من كل الكارثة حيث يقول :

الموج في تلك السهول كأنما
زحفت على تلك السهول روابي

إني عتبت على الفرات وهل ترى
يتنازل الطاغي لسمع عتاب

ماللفرات المستشيط بغيضه
يسطو وسطوته على الأصحاب

فبلاغة الأعيان ماأجدت ولا

صد الفرات فصاحة النواب

انه تهكم ممزوج بالمرارة على مجلسي النواب والأعيان آنذاك الذين لاهم لهم سوى إظهار براعتهم في تلك الخطب التي لاتغني ولا تسمن من جوع، ولا عجب في ذلك ماداموا ينتمون إلى دولة الأقطاب التي تحكمهم. وأخاطب روحك يا شاعر العراق الكبير لو كنت حيا لرأيت العجائب والغرائب من مجلس النواب في العراق الجديد الخاضع إلى دولة الأحزاب والمحاصصات والذين يعطون المثل الأسوأ في الخطب الخاوية التي لم يجن منها الشعب العراقي سوى الموت والرماد والخراب. هذا هو حال برلمان العراق الجديد اليوم الذي ليس بأفضل من ذلك البرلمان الذي كانهمه الوحيد جني المكاسب على حساب الفقراء والمعدمين الذين يعانون الفقر والحرمان وشظف العيش و هاهو يثبت إن حسام الذين أسوأ من أخيه بعد عقود من السنين العجاف.

ويستمر الشاعر في قصيدته " الفرات الطاعي" موجهها كلامه للرؤوس والأقطاب فيقول :

سل دولة الأقطاب هل من منقذ
لزروعه في دولة الأقطاب

طافت حنايا الكوخفوق خصاصه العرقى
و عام البيت بالأخشاب

ولقد نظرت أثاره الطافي فلم
أبصر سوى حصر وجرذ ثياب

لأنجوة يأوي لها الراعي ولا
لقطيعه المذعور نشز هضاب

ويصل في قصيدته إلى ذروة المأساة حيث ليصور كيف غدا حال الكلاب وأسراب الأطفال في آن واحد وهي تصارع الأمواج وتفعل المستحيل من أجل البقاء لتتنقذ حياتها من خطرالموت الذي داهمها على حين غره فشبه الأطفال بالطيور المرفرفة بين الأمواج التي أخذت تلطمها يمينا ويسارا لتخمد أنفاسها وتحولها إلى جثث هامة باردة :

حتى الكلاب بذلة وكآبة

ولهى قد امتحنت بخوض عباب

وتكاد تخرج من إهابك عندما
ترنو إلى الأطفال كالأسراب

تعدو مرفرفة أمام الموج كي
تنجو فينكصها على الأعقاب

والشرقي عندما يكتب قصيدة في وصف شيء ما أو يبعث بتهنئة لصديق أو يرثي شخصا عزيزا عليه يشير في قصيدته إلى مكن الجرح حيث الأغلال تكبل أبناء وطنه. وفي هذه القصيدة التي سادونها يهنئ صديقا له بمناسبة زفافه نراه كيف يستنهض هم الشباب كي يدرأوا الخطر المحدق بوطنهم وأمتهم فيطلب منهم بروح حماسية متأججة قادرة على التأثير في أعماق النفوس أن يكونوا خير بناء لوطنهم وأنهم إذا سعوا إلى رفعة وطنهم والدفاع عن مقدساته فلا بد أن يبذلوا الدماء على مذبح الحرية وهم قادرون على البذل والتضحية لأن الوطن يستحق أعظم التضحيات ويرنو إلى تضحياتهم وإيثارهم .لأن الوطن بسواعدهم يصمد. وبهممهم وحنفوانهم وتضحياتهم تخفق في ربوعه رايات النصر والحرية انطلاقا من قصيدة أحمد شوقي:

والحرية الحمراء باب

بكل يد مزرجة تدق

وباستنهاضه للشباب لأنه يعلم تماما بحسه الواعي إن الشباب قادرون دائما على البذل إذا عقدوا العزم وتوحدت إرادتهم. لأنهم الجيل الذي ينتمي إلى أولئك الأفاضل الذين جبلوا على التحدي، وسبحوا عبر أنهار الدماء من أجل حريتهم وكرامتهم وخلصوا وطنهم .وهنا يكمن دور الشاعر في خلق وعي الأمة عندما تختلط القيم والمفاهيم , ويظهر المرجفون والإنهزاميون ليطعنوا الأمة بكبريائها وأقدس أمانيتها :

صحراء أندلس حمائك أنجبوا

للثورة الحمراء جيلا ثان

كف لنا خضبت بنجد صافحت

سورية فتخضّب الكفانِ

الورد ألوانٌ فقلْ لرياضنا
لاتنبتي إلا بأحمر قانِ

ورد الشباب وسوف ينبت دائما
ذكرى لهم بشقائق النعمانِ

ساري النسيم الحاملات رسالة
للورد نحو مرآة الشبان

رقدوا وأعلام البلاد تلفهم
كالورد في الأكمام لا الأكفان

لقد شبه الشهداء الذين سقطوا مخرجين بدمائهم من أجل الوطن كالورود في الأكمام ولاشك في ذلك لأن الشهداء مشاعل نور ونجوم لاتنطفئ أبدا.وهي التي ترسم الطريق لكل عشاق الحرية والباحثين عن الكرامة والمجد لوطنهم . ويستترد في قصيدته متحدثا عن الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم من أجل رفعة الوطن قانلا :

وتقمصت لطفًا وروذ ربيعها
أرواحهم عوضا عن الأبدانِ

ثم يخاطب مرة أخرى شباب العراق ويصفهم بالبستان ويسوءه أن تكثر الأشواك في البستان التي تشوه هذا البستان وتمنع الأشجار المثمرة من إعطاء الثمر اليانع للأمة. فالأشواك هم أعداء الأمة الذين يحاولون التغلغل بين أوساط الشباب وتثبيط عزائمهم وإغرائهم بأمور تافهة تبعدهم عن هموم شعبهم ووطنهم بعد أن عقدا آمالهما الكبار على عقولهم وسواعدهم وهذا الذي يحذر منه الشاعر حيث يقول :

ياورد بستان العراق يضيمني
أن تكثر الأشواك في البستانِ

ولعل رباعيات الشرقي التي تحمل عنواني (البلبل الطليق) و (البلبل السجين) هي أجمل ماكتب من شعر. ففي هذه الرباعيات الجميلة يجد متذوق الشعر الوجه الحي للطبيعة البشرية بكل مايعتريها من قلق وحب ولذة وألم وتفاؤل وتشاؤم ونجاح ونكوص حيث يتطرق فيها الشاعر إلى مختلف شؤون الحياة الفلسفية والوصفية والوجدانية وغيرها وأستطيع أن أزعم أن الشاعر الشرقي قد قرأ رباعيات الخيام قراءة متأنية وحاول أن يحذو حذوها لكن رباعياته لن ترقى إلى مستوى رباعيات الخيام العميقة الدلالة بمضمونها الفلسفي وقد ترجم تلك الرباعيات الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي وكذلك الشاعر المصري أحمد رامي وكلا الشاعرين كانا معاصرين لشاعرنا علي الشرقي ولا أدري هل جمع شاعرنا الشرقي لقاء بالشاعرين أم لا وإذا جمعه لقاء معهما فهل تحدثوا عن تلك الرباعيات وعن شخصية عمر الخيام التي اختلف فيها الكثيرون فمنهم من قال إنه زاهد متعبد متصوف ومنهم من قال إنه متهتك أطلق هواه وغرائزه ووصف الخمرة لأنه كان يعاقرها ومهما يكن من أمر فباعقادي الشخصي أن رباعيات الشرقي فيها روح من رباعيات عمر الخيام حيث تمسها مسا خفيفا. لكنها حسب رأي المتواضع لاتجاريها في العمق والدلالة. وهذه إحدى رباعياته التي يحاول بها تقليد رباعية لعمر الخيام فيقول :

من أجل جبران قلب
قد انكسرن قلوب

وكي يكون وقود
يجف غصن رطيب

نتوب عن جرم ذنب
وتستجد ذنوب

تُبنا وعدنا فهلاً
من أن نتوب نتوب

إنه يعبر في هذه الرباعية عن رغبات النفس الأمارة بالسوء الذي يعيش في عالم يضح بالمغريات التي لا يستطيع أن يقف في وجهها إنطلاقاً من الآية الكريمة (وخلق الإنسان ضعيفا) وأستمرارية الحياة تفرز الأضداد دوما :

لكي يكون وقود

يجف غصن رطيب

وإنها جدلية الموت والحياة التي تناولها وسيتناولها الفلاسفة والمفكرون إلى يوم
يبعثون. وحسب اعتقادي إن رباعية الشاعر علي الشرقي تلتقي مع رباعية عمر الخيام في
المعنى تلك التي ترجمها الشاعر الراحل أحمد رامي حيث يقول الخيام:

نلبس بين الناس ثوب الرياء

ونحن في قبضة كف القضاء

وكم سعينا نرتجي مهربا

فكان مسعانا جميعا هباء

فالتشابه في المعنى بين الرباعيتين واضح جلي ولكن كل شاعر عبر عنها بلغته الخاصة به .
لقد جعل الشاعر علي الشرقي من رباعيات "البلبل الطليق " و "البلبل السجين " رمزين
لفلسفته وأفكاره وهواجسه ف (البلبل) هو تلك الروح الهائمة الباحثة عن الحرية والنقاء
والطهر والحياة المثلى البعيدة عن القهر والأغلال والسجون وهو لا يطيق البقاء في القفص
الذي يسكن فيه وحرسته الفضاء الشاسع ومع الأشجار والورود . فلا يبوح بعشقه إلا لها لأنها
تحفظ له أسراره كما يعبر في هذه الرباعية :

معي يابلبل الروضة

من لوح إلى لوح

وبح للورد إن الورد

مأمون على البوح

وددت الفلك لم ينج

ولم يسلم على نوح

وتبقى الأرض للنبت

من القيصوم والشيح

إنها أرض العراق التي تنبت فيها الكثير من النباتات البرية الزكية الرائحة منذ أن خلقها الله
والقيصوم والشيح هي النباتات البرية الزكية الرائحة ولا بد للبلبل أن يتنقل بينها، ويستاف

عبيها دون خوف أو قهر ولاشك أن البلبل هو الإنسان العراقي الذي لاقى الكثير من الضيم والاضطهاد على أيدي الطغاة ولا بد أن ينال حرите في آخر المطاف. وهذه الرباعية فيها معان تلتقي مع رباعية أخرى لعمر الخيام في المعنى ترجمة أحمد رامي حيث يقول فيها :

صفا لك اليوم رق النسيم
وجال في الأزهار دمع الغيوم

ورجّع البلبلُ ألعانه
يقولُ هيا اطرب واخل الهمومُ

إن العديد من رباعيات الشاعر علي الشرقي لاتخلو من روح التهكم والسخرية التي غالبا ماكان يوجهها للحكام الذين لاهم لهم سوى سرقة قوت الشعب والعيش على جماجم أصحاب الأرض الحقيقيين، وجمع الضرائب من كد هم وعرقهم لبناء قصورهم الفارهة ولا بد أن يأتي اليوم الذي يثور فيه هؤلاء المسحوقين ليزيلوا عروش الظلم والفساد حيث يقول في إحدى الرباعيات:

هل زاد رزقي درا
حتى تزيد الضرائب

وصاحب الكوخ فقرا
قد باع حتى المعاصب

أأنت تسكن قصرا
من كد أهل الضرائب

بغاثُ طيرك يضرى
ونسر قومي يراقب

وفي ختام هذه الدراسة المتواضعة لايسعني إلا أن أقول نحن أمام شاعر مجيد , حانق الصنعة واسع الخيال , ثر المعاني , غنى للجمال والحب والوطن والقيم الإنسانية النبيلة بلغة شعرية شفافة ومتمكنة وأسرة وأنه عشق وطنه العراق عشقا لحدود له وسخر جل شعره لوطنه ورغم شعوري بالتنقصير في الإمام بكل القصائد التي احتواها الديوان من رباعيات وموشحات

ومزدوجات لو تناولتها لأحتجت لكتابة عشرات الصفحات الأخر. والشاعر الكبير علي الشرقي يستحق الكثير الكثير وأقولها بكل أسى ومرارة بأن النقاد قد ظلموا هذا الشاعر الوطني الكبير ولم يقدره حق قدره أتمنى من محبي الشعر أن يقضوا أوقاتنا ممتعة مع ديوان الشاعر الوطني الكبير علي الشرقي الذي سيبقى أثرا بارزا في تأريخ الشعر العراقي المعاصر . رحم الله علي الشرقي الشاعر والإنسان ورحم الله المحققان الأستاذان إبراهيم الوائلي وموسى الكرباسي حين كانا أو ميتين على تحقيقهما لديوان الشاعر الخالد الشيخ علي الشرقي .
المصدر : ديوان الشاعر علي الشرقي - مطبوعات وزارة الأعلام العراقية عام 1979م أشرف على تحقيقه الأستاذان إبراهيم الوائلي وموسى الكرباسي.